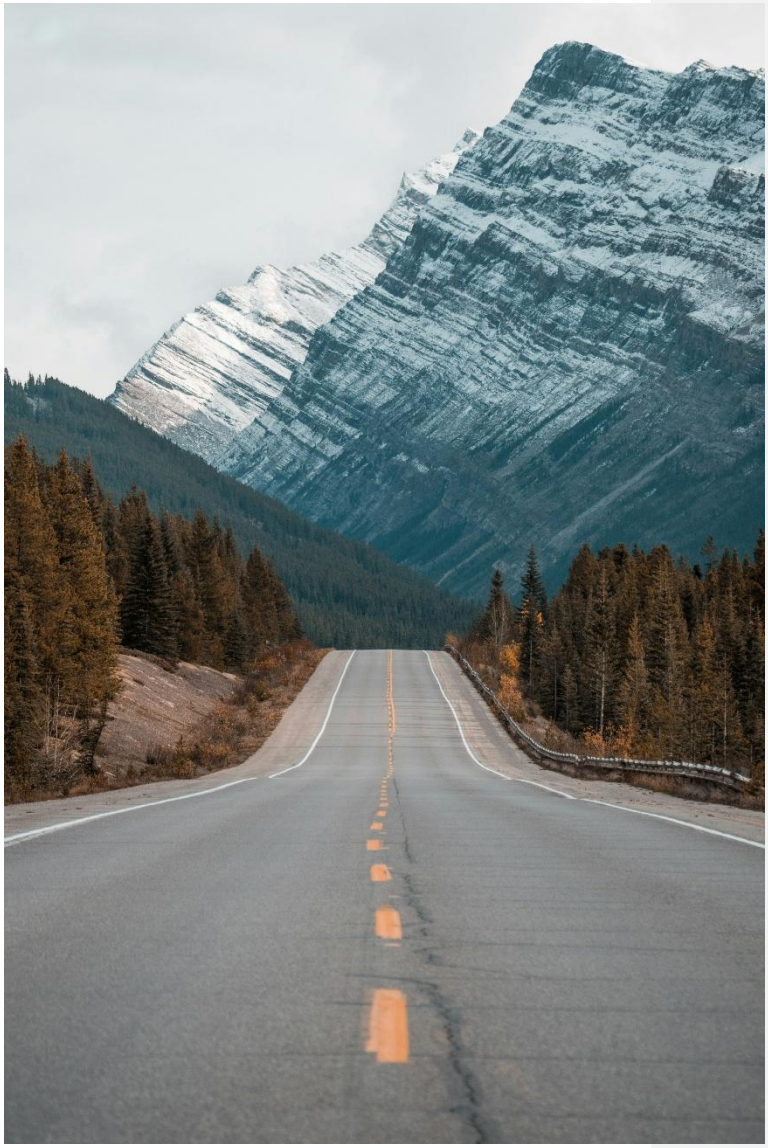

و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

حُسنُ البِداياتِ

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٦/٢/١٥ هـ

"حُسنُ البِداياتِ"

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى أهله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

حديثنا اليوم بعنوان حسن البدايات، وسأبدأ به بقصةٍ معروفة عند الجميع، يقصّها علينا الله سبحانه وتعالى في سورة القَصص، هي: قصة قارون، الذي كان من قوم موسى، وكان من أغنى الأغنياء الذين عرفهم التاريخ، إلى درجة أن كانت العصبةُ من الرجال الأشدّاء لا تقوى على حمل مفاتيح صناديق كنوزه، نسب قارون الغنى لنفسه، وأساء لذات الله β، وكفر بأنعم الله β، وتكبر على خالقه، وعلى أهل الأرض، وكانت هذه البداية سببًا في سوء النهاية التي وصل إليها.

أذاقه الله العذاب. قال الله عز وجل واصفًا ما حدث: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[القصص: ٧٦-٨٢].

فماذا جرى لقارون؟ انتهى به الأمر بخسفٍ كالزلزال، حيث انشقتِ الأرض وابتلعته وأمواله، فلمّا ساءت بدايته ساءت نهايته. فالرزق من عند الله ، ولم يكسبه بعقله، وعبقريّته، لكن جواب الله ، قال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾[القصص: ٧٨]. ولو دامت له أو لغيره، لما وصلت إليك.

تعلّمنا هذه القصة أن حسن البدايات شرطٌ رئيسيّ لحسن النهايات، كما أن سوءَ البدايات سببٌ لسوء النهايات. فلا يفلح في الآخرة إلا من أحسن بدايته. قال الله عز وجل في نهاية القصة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣].

ومثال آخرٌ لحسن البداية؛ لقاء جبريل عليه السلام النبيَّ صلى الله عليه وسلم، في غار حِراء، وكان ذاك أوّلَ لقاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بجبريل عليه السلام، وكانت نتيجة هذا اللقاء بشارةً سماويةً عظيمة بُشِّرت بها

خديجة رضي الله عنها **فعن ابن أبي أوفى ﷺ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** "قالَ لي جبريل: "بشِّرْ خديجة ببيتٍ في الجنةِ من قَصَب لا صخَبَ فيه ولا نَصَب"[1].

وفي القصة المعروفة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّها قالت: "..... فجاءَه الملَكُ فقال: اقرأْ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذَني فغطَّني حتّى بلغَ منّي الجَهدَ ثم أرسلني -حتّى بلغَتْ ثلاثة- فقال: "اِقرأْ باسمِ ربِّك الذي خلقَ (١) خلقَ الإنسانَ من عَلَق (٢) اِقرأْ وربُّكَ الأكرم" فرَجَعَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُفُ فؤادُه، فدخَلَ على خديجةَ بنتِ خويلد رضي الله عنها، فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهبَ عنه الروع، فقالَ لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: "كلّا واللهِ ما يُخزيكَ اللهُ أبدًا، إنكَ لَتصِلُ الرحِمَ، وتَحملُ الكَلّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ..."[2].

فبهذا استحقت خديجة رضي الله عنها تلك البشارةَ العظيمة، فقد ماتت في بدايات الدعوة، ولم تهاجر مع من هاجر إلى المدينة، ولم تشهد بدرًا، ولا أحدًا وغيرهما. فكيف كان شعورها وهي على قيد الحياة وتعلم أن لها بيتًا في الجنة.

وقد وصف العلماء هذه اللحظة، بأنها لحظةُ إيمانها، فقد آمنت عندما نطقت الشهادة، وتحقّق إيمانها عندما قالت: **"كلّا واللهِ ما يُخزيكَ اللهُ أبدًا".**

فيا لقوةِ إيمانِ خديجةَ ورجاحةِ عقلِها، فجميع الخلق في الدنيا سواءٌ، وإنما يتفاضلونَ في الآخرة بحسنِ بداياتهم ونهاياتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ٣٢]

والإنسان يدعو الله أن يُحسنَ خاتمته، ذلك أن الأعمالَ بالخواتيم، وكما تكون البداية تكون النهاية.

والمثال الثالث لحسن البداية، تَرجمانُ القرآن ابن عباس رضي الله عنه، وحصل على هذا اللقب؛ يوم كان يشرح سورةَ البقرة في الحج، فكان يحضر مجلسه أكثرَ من خمسةِ آلافٍ من الحجيج، ولبلاغته وبراعته كانت الناس تقول: "لو أن نصرانيًّا سمع ابن عباس يشرح سورة البقرة لأسلم".

عن ابن عباس قال: "بِتُّ في بيت خالتي ميمونة -زوجة النبي عليه الصلاة والسلام- فوضعتُ للنبي صلى الله عليه وسلم غُسلًا-وقد كان ابن عباس غلامًا صغيرًا لم يتجاوز تسع سنوات- فقال: "من وضعَ هذا؟ قالوا عبد الله بن عباس. فقال: "اللّهمّ علِّمهُ التأويلَ وفقِّههُ في الدين"[3].

---

[1] أخرجه الطبراني في معجمه، وصحّحه الألباني.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه.

[3] أثبته ابن كثير في البداية والنهاية، وصحّحه الألباني.

فيجيب الله تعالى دعاء حبيبه ونبيه صلى الله عليه وسلم، ويصبح ابن عباس تَرجمان القرآن. لذلك قد لا تكون بعض البدايات سببًا لحسن النهايات فقط، بل الحياة بأكملها.

ولحسن البدايات **خمس نقاط مهمة:**

١. البدايات الفاصلة

بأن يكون عندك بداية فاصلة بينك وبين الحرام. فقد تجد رجلًا حكيمًا فاهمًا يمرُّ بموقف معيّن فينفعل انفعالًا لا يستحقه ذاك الموقف، أو يذنب ذنبًا صغيرًا وهو غير معتادٍ على ارتكاب أيِّ ذنب ثم يجد نفسه يرتكب كبائر الذنوب، أو ربما يعود لذنب تاب منه منذ سنوات عديدة.

فما الذي أوصله إلى هذه المرحلة؟ وماذا حلّ بثباته ومقاومته للذنوب؟

إنّنا بشرٌ بطبيعتنا نخطئ ونصيب، مستورون بستر الله عز وجل، وما فِعلُنا للطاعات إلّا بتوفيق الله وفضله، وإنّ ارتكابنا المعاصي لا يحصل مصادفةً، وإنما يقع على مراحل، فيقود الشيطانُ خطواتِك الأولى إلى الذنب حتى تقع فيه؛ فلا تستطيع تركه،

لذلك نبهنا الله سبحانه وتعالى لبدايات الأمور. فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأنعام: ١٥١].

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[الإسراء: ٣].

قال الله عز وجل: "لا تقربوا"، ولم يقل: " لا تزنوا"، ذلك أن للحرام قوةَ جذب كالمغناطيس تمامًا، فالإنسان يستطيع المقاومة طالما كان بعيدًا عنه، فإذا اقترب ازدادت قوة جذب الحرام له، حتى يصل إلى مرحلة الاستسلام، فكلمة (لا تقترب) منهج حياة المسلم.

عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: "ضربَ رسولُ الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتيِّ الصراط سورٌ فيه أبوابٌ مفتّحةٌ، وعلى الأبوابِ ستورٌ مُرخاةٌ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يدعو: يا أيّها الناسُ ادخلوا إليه جميعًا ولا تتعوَّجوا، والداعي يدعو من فوقِ الصراط، فإذا فُتِحَ بابٌ من تلك الأبواب قال: ويحكَ لا تفتحه! إنّكَ إن تفتحهُ تلِجْه، والصراطُ: الإسلام، والستورُ: حدودُ الله، والأبوابُ المفتّحةُ: محارمُ الله عز وجل"[٤].

فالحل، ألا تقترب من هذه البدايات الفاصلة بينك وبين الحرام، فهي التي تحميك من الوقوع فيه.

---

[٤] صحّحه الألباني.

٢. حزم البدايات

قد كان لنا لقاءٌ سابق في شهر محرم الماضي عنوانه **(من أين ابدأ؟)**، وهذا سؤالٌ مهم. وما يدفعنا لطرح مثل هذا السؤال: شعورنا بالملل من روتين الحياة اليومي، ونمطِها الرتيب، وهذا السؤال يدفعنا لسؤال جديد، هو: هل سألقى الله عز وجل بهذه الحياة؟ فنحن مسؤولون وحدنا عن حياتنا، فأول نقطة بحزم البدايات أن نتحمل وحدنا مسؤوليات الحياة. يقول الله عز وجل: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[مريم: ٩٥].

ذلك أن يوم القيامة يومٌ عصيب، ينشغل كل واحدٍ منا بذنوبه وبخوفه من الحساب، فلا أحد سيُحاسب عنك. وتجد نفسَك مسجونًا، مقيّدًا بأعمالك، مختومٌ على فمك، لا تستطيع الكلام، ويسأل الله العبد: "أترضى أن يكون شهودُك من نفسك؟ فيستبشر ويقول: نعم. ظنًّا منه أنه من سيدافع عن نفسه! فيختم الله على لسانه، فينطق فيه كلُّ عضوٍ بجسده بما فعله في الدنيا. وأول ما ينطق فخذه، فيشتكي إلى الله عز وجل وهو واقف يسمع.
فمن أشد لحظات الإنسان رعبًا؛ عندما يوقفه الله بين يديه ويسأله عن كلّ صغيرة وكبيرة، يقول الله عز وجل: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصّافّات: ٢٤].

فاصنع البداية، وابدأ بالتغيير، ولتكن أنت التغيير الذي تريد أن تراه في الناس، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فطوبَى لمنْ جعلهُ اللهُ مِفْتَاحًا للخيرِ..."[٥].

ويُذكر أن كان هناك صحابي من الأنصار اسمه بشير بن الخَصاصيّة رضي الله عنه، أتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليبايعه على الإسلام، يقول: " .... فاشترطَ عليّ أن أشهدَ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وتصلّي الخمسَ، وتصومَ رمضان، وتؤدّي الزكاةَ، وتحجَّ البيتَ، وتجاهدَ في سبيلِ الله. قال بشير: قلت: يا رسولَ الله، أمّا اثنتانِ فلا أطيقُهما، أمّا الزكاةُ فمالي إلّا عشرُ ذَودٍ -أي عشر من الإبل- هنّ رِسلُ أهلي وحمولتِهم، وأمّا الجهادُ فيزعُمونَ من ولّى -أي هربَ- فقد باءَ بغضبٍ من الله، فأخافُ إذا حضرني قتالٌ كرهتُ الموت، وخشعتْ نفسي. قال: فقبضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدَه ثمّ قال: " لا صدقةَ ولا جهادَ فبم تدخلُ الجنة؟" قال: ثم قلت: يا رسول الله، أبايعُكَ فبايَعني عليهنّ كلهنّ"[٦].

فتأمّل حبَّ أصحاب رسول الله له ﷺ وتقديمَهم أمر الله عز وجل على أهوائهم. ولا يكون جهاد النفس إلا بأن تبتعدَ عن منطقة الراحة، فتستيقظَ لصلاة الفجر على الرغم من شدةِ النعاس، وتلتزمَ المرأة بحجابها ولباسها الساتر وتصبرَ على حرِّ الصيف فتدخل الجنة، حيثُ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر والصحابة رضوان الله عليهم.

---

[٥] أخرجه الطّبراني في معجمه، وحسّنه الألباني.

[٦] أخرجه أحمد في مسنده، وصحّحه الحاكم والحافظ الذّهبي.

٣. تحديد المسار والوجهة

فعلى الإنسان تحديد أهدافه، بل ويسعى جاهدًا لتحقيقها ما استطاع، كما عليه ترتيب أولوياته، فلا يكون مشتّتًا لا يعرف ماذا يفعل، وماذا يختار، فإذا كان كذلك تأثّر به من حوله. **عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:** "أرحمُ أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في دينِ اللهِ عمر، وأصدقُهم حياءً عثمان، وأقضاهُم علي بن أبي طالب، وأقرؤُهم لكتابِ اللهِ أُبيٌّ بنُ كعب، وأعلمُهم بالحلالِ والحرامِ معاذُ بنُ جبل، وأفرضُهم زيدُ بنُ ثابتٍ، ألا وإنَّ لكلِّ أمةٍ أمينًا، وأمينُ هذه الأمةِ أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاحِ"[٧]. فقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام مِيزةً لكل واحدٍ من أصحابه ، فعليك أن تبحثَ عن هذه الصفة التي تتمتع بها، وتعرف مسارك في الحياة.

٤. التأثير بمن حوالك

يقول علماء تربية الذات: **"لكلِّ إنسانٍ دائرتان؛ دائرةُ تأثيرٍ ودائرةُ اهتمام"**، فدائرة التأثير صغيرة، أمّا دائرة الاهتمام فهي أكبر فأنت تؤثر في نفسك، وأسرتك، وأقاربك، وأصدقائك، وإذا كنت معلمًا فتؤثر في طلابك، وإذا كنت مديرًا وعندك أربعون موظفًا فيزداد حجم تأثيرك.

أمّا دائرة الاهتمام فهي اهتماماتك الأخرى في مجالات مختلفة، كالشعر، أو الطبخ، أو الرياضة، فدائرة الاهتمام شغلت يومك وينتهي يومك بلا أي إنجاز، **و**كلّما اتّسعت دائرة الاهتمام التي تعتمد على المتابعة فقط ضاقت دائرة التأثير، فانشغل كل واحد من أفراد الأسرة باهتماماته، واعتكف على جواله، فانعدم الخطاب والحوار، وهذا مرض العصر الذي يؤدي إلى تدمير العلاقات الاجتماعية، وتكون إنسانًا غير فاعل وغير مؤثر.

كنت قد قصصت عليكم قصة ذاك التاجر الذي سافر وفي طريق سفره وجد طائرًا ملونًا على الأرض لا يتحرك، فأوقف سيارته فاقترب منه فلم يتحرك، فاستغرب ذلك واكتشف أنه أعمى، فأخذ يتساءل كيف لهذا الطائر أن يأكل ويشرب ويطير، ومن يأتيه برزقه، فإذا بطائر آخر في فمه بعض الديدان يتجه نحوه فيلقمه إياها، فجلست أفكر وأقول أنا مسافر ومغترب عن أهلي لأجل صفقة تجارية، ساعيًا وراء الرزق والله يتكفل برزقي ولو كنت في بيتي، فعاد إلى بلده فمرّ برجلٍ كبير في السن فقصّ عليه ما جرى معه، فقال له: "فهلّا كنت الطائر المبصر".

عن حكيم بن حِزام رضي الله عنه، عن النبي ﷺ ، قال: "اليدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلَى..."[٨]

فعليك أن تحدِّدَ مسارك، وتعرف الدور الذي تريد تأديته، والرسالة التي تريد إيصالها، والأهداف التي تسعى لتحقيقها، فتعمل على أن يكون أحد أهدافك هذا العام أن تكون صادقًا، وتتحلّى بقيمة الصدق، فالله عز وجل يحبُّ الصادقين، فلا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند

---

[٧] أخرجه بن ماجه في سننه، وصحّحه الألباني.

[٨] أخرجه البخاري في صحيحه.

الله كذابًا، وليكن هدفك الأول الاستقامة في صلاتك، فإن أولَ ما يسأل عنه العبد يوم القيامة صلاته، فإذا حَسُنت صلاته حَسُن ما بعدها، وإذا نقصت نقص ما بعدها، فهي البوابة الأولى لباقي أعمال العبد وطاعاته.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **"إنّ الرجلَ ليشيب عارضاه وما صلى لله صلاة"**أي لم يصلي صلاة حقيقية لله عز وجل.

٥. تغيير العادات يؤدي إلى تتغير الحياة

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: **"حياتك نتاج أفكارك، فابدأ بتفاصيل يومك الصغيرة قبل أحلامك الكبيرة، فهي توصلك إلى حلمك الأكبر"** فعلينا تغيير عاداتنا اليومية كي تتغير حياتنا للأفضل، فحاول تعويد نفسك على فعل ما ينفعها، واملأ وقتك بكل مفيد، وأشغل نفسك ولا تدع الفراغ ينال منك، واغتنم فراغك، وصحتك، وشبابك، وأوثق بنيان حياتك، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة: ١٠٩].

فالبنيان هو روحك ونفسك، وكل شيءٍ سواها زائل لا محالة، أولادك وأسرتك وأصدقاؤك ولا يبق إلا من أحسن بناء حياته،

ويكون ذلك **بأمرين اثنين:**

١. بصحة معرفة الله عز وجل واتباع أوامره واجتناب نواهيه، ومعرفة أسمائه وصفاته، فلا يمكن أن نعبد من لا نعرفه، وإذا عرفناه فلا تقتصر معرفتنا له في الضراء دون السراء. جاء رجل لأبي الدرداء وهو يريد الغزو فقال: يا أبا الدرداء أوصني، فقال: اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء
٢. وبتجريد الانقياد له سبحانه فتكون منقادًا لشرع الله، فتترك الحرام بمجرد معرفتك إياه دون أيّ نقاش.

فمعرفة الله والانقياد له أمران متلازمان إذ إن معرفة الله عز وجل هي العلم، والانقياد له هو العمل، فمتى ما أوثقت بنيانك بهذين الأمرين كان صلبًا قويًا، ويكون ذلك بحزم البدايات، إذ إن كل إنسان مسؤولٌ عن نفسه، فعليك أن تملأ وقتك بما ينفعك من الاستماع للحديث النبوي، ودروس التفسير والفقه والعقيدة، وعليك بالاستماع لكلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وقراءة كتبه وإلّا فاتك علمٌ كثير، فهو مدرسةٌ بمفرده.

٦. الحذر من فخِّ العشوائية:

ويقع في هذا الفخ كلُّ من لا ينظم وقته، ويضع خطةَ حياة، ويحدد أهدافه، ويسير باتجاه هدفه الأكبر، وهذا ما نحتاج إليه لنتخلص من العشوائية، وإلا فعليك بذل جهد ذاتي مضاعف لأجل النجاح.

٧. البدايات المحرقة سببٌ للنهايات المشرقة

و (مُحرقة) لا تعني أنها مؤلمة، بل تعني أنها تحتاج جهدًا كبيرًا، فنفس الإنسان كالطفل تمامًا، تحتاج إلى التربية والتهذيب، ولذلك الصحابة رضوان الله عليهم لاقوا من البدايات المحرقة الشيء الكثير، فصُقِلت نفوسهم، وتغيّرت حياتهم.

جميعنا يذكر قصه مرثد ابن أبي مرثد الغنوي أحد الصحابة رضوان الله عليهم، نشأ في مكة، ثم هاجر مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، فلما هاجر إلى المدينة كرّس حياته لشيء واحد هو الذهاب إلى مكة ليلًا لإنقاذ أسرى مكة وإحضارهم إلى المدينة. روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ مرثدَ بن أبي مرثد الغنوي وكان رجلًا شديدًا وكان يحمل الأُسارى من مكةَ إلى المدينة، قال: فدعوتُ رجلًا لأحمله وكانَ بمكّةَ بغيٌّ يُقالُ لها عَناقٌ وكانت صديقتَه، خرجتْ فرأتْ سوادي في ظلِّ الحائط، فقالت: من هذا؟ مَرثَدٌ مرحبًا وأهلًا يا مَرثدُ انطلق الليلةَ فبِتْ عندنا في الرَّحل. قلت: يا عَناقُ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّمَ الزنا، قالت: يا أهلَ الخيام هذا الدَّلدَلُ هذا الذي يحملُ أُساراكم من مكة إلى المدينة ..... فجئتُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقلتُ: يا رسولَ الله، أنكِحُ عَناق؟ قال: فسكتَ عني، فنزلت: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فدعاني فقرأها عليّ، وقال: لا تنكِحْها"[٩].
كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالفونه في شيء ولا يجادلونه في أمرٍ نزل من عند الله، فهذا مرثد رضي الله عنه يستجيب لأمر الله في بدايةٍ محرقةٍ، ويخالف هواه في سبيل نيل رضا الله سبحانه وتعالى.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: "كنتُ أسقي أبا عبيدةَ وأبا طلحةَ وأُبيَّ بنَ كعب من فَضيخٍ زهوٍ -أي: نبيذ البُسر- وتمر، فجاءَهم آتٍ، فقال: إنّ الخمرَ قد حُرّمَتْ، فقال أبو طلحة: قمْ يا أنس فأهرقْها فأهرقتُها"[١٠].

وعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصرُ لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان مَن قبلَكم، يؤخذُ الرجلُ فيُحفرُ له في الأرض، فيجعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمنشار فيوضَعُ على رأسه فيُجعلُ نصفين، ويمشطُ بأمشاطِ الحديد، ما دونَ لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه،...."[١١].

[٩] أخرجه النّسائي في سننه، وقال الألباني: حسن.

[١٠] أخرجه البخاري في صحيحه.

فإذا لم تحاول التغيير فاعلم أن ما ينتظرك أسوأ مما فاتك. فلا تسلم نفسك للشيطان، وخالفه، واعلم أن النتيجة هي قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤].

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: "إنّ الشيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرُقِه، فقعدَ له بطريقِ الإسلام، فقال: تُسلِمُ وتذرُ دينكَ ودينَ آبائك وآباءِ أبيك؟ فعصاهُ فأسلم. ثم قعدَ له بطريقِ الهجرة، فقال: تهاجرُ وتدعُ أرضَكَ وسماءكَ؟ وإنّما مَثَلُ المهاجرِ كمثلِ الفرسِ في الطِّول، فعصاهُ فهاجرَ. ثمّ قعدَ له بطريقِ الجهاد، فقال: تجاهدُ فهو جَهد النفس والمال، فتقاتِلُ فتُقتَلُ، فتُنكَحُ المرأةُ، ويُقسَمُ المال، فعصاهُ فجاهدَ، فقال رسول الله: فمَن فعلَ ذلك كان حقًّا على اللهِ عزّ وجل أن يدخلَه الجنة"[١١].

فمن خالف شيطانه كان حقًا على الله أن يدخله الجنة. أما من أطاع الشيطان دخل معه جهنم. قال عزوجل: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[إبراهيم: ٢٢].

وإن أعظم الظلم أن تظلمَ نفسك، وتسلك طريقًا تكون هذه نهايته؛ إذ إن حسن البدايات يؤدي إلى حسن النهايات فأسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل البدايات الحسنة، وأن يرزقنا حسن النهايات، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها

[١١] أخرجه البخاري في صحيحه.

[١٢] أخرجه النّسائي في سننه.